الفلسفة العربية وكيف تدرس

للأستاذ عبد العزيز محمد الزكى

تعم الشرق العربى نهضة تشمل مختلف نواحى الحياة من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية . ولكى نسير بهذه النهضة إلى الأمام يجب أن نقيمها — ونحن فى بدايتها — على أسس وطيدة تلائم استعداداتنا العقلية وتقاليدنا الإجتماعية . وذلك يلزمنا بأن نتوجه إلى حضاراتنا العربية نبحث تراثها من جديد ؛ ونستكشف من بين ثنايا مخلفاتها مقوماتنا النفسية ، واتجاهات ميولنا الفكرية ، ومعاييرنا الخلقية ، وعاداتنا الإجتماعية . فيجب علينا أن نجد فى بحث تراثنا العربى لانترك فيه علماً أو فناً من غير أن نستوفى دراسته ، ونسرع فى نشر أبحاثه فى جميع أنحاء العالم العربى ، حتى يدرك كل عربى ما هى المبادىء المقومة لفكره ، وما هى الاتجاهات الثابتة التى ينزع إليها دائماً عقله ؛ فيأخذ فى تنمية مواهبه ، ويشـــغلها بالموضوعات التى تتفق مع نزعاته الفكرية الصحيحة ؛ وكل ذلك يؤهل الشعوب العربية لأن تقوم وتؤسس حضارة عالية تنشأ فى أحضان الأصول الروحية الشرقية وتتفق بنضوج الخصائص الرئيسية لعقليتنا العربية ...

علينا إذن نحن العرب واجب مقدس نحو مستقبلنا الحضارى ، وهو أن نتعاون جميعاً على تحليل علوم العرب وآدابهم وفنونهم إلى عناصرها الأولية ، قاصدين معرفة محتوياتها وأصولها ونواعتها ومناحى مذاهبها . وأحسب أن تحقيق ذلك يتطلب دراية واسعة وفهما عميقاً لكل التيارات الثقافية التى أثرت فى العقلية العربية ، حتى يمكننا أن نميز بين ما هو أصيل فى الحضارة العربية وما هو دخيل عليها ، ولذلك قبل أن نقدم على مثل هـذه الدراسات ، يجب أن نتزود بالزاد الثقافى الذى يعدنا للاشتغال بتراث العرب ، وأن نحدد لمختلف العلوم والآداب والفنون البرامج الثقافية التى تعين كل باحث فى تفهم مادة بحثه وفى هذا المقال سأحاول أن أضع البرنامج الثقافى الذى أرى أنه يفيد كل من يرغب فى الإشتغال بالفلسفة العربية ...

نشأت هذه الفلســفة فى بيئة ثقافية معقدة أشـد التعقيد ، وتطورت فى ربوع شـعوب متباينـة الإتجاهات ، وتأثرت بحضارات متعارضة النزعات . فلقد كان العالم العربى يمتد من غرب الهنـد شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، ويضم بلاد الأندلس والمغرب ومصر والشام وشبه جزيرة العرب والعراق وفارس وما وراء النهر ، فتلاقت ثقافات هذه البلاد وتمازجت ، كما تسربت إليها الأفكار الهندية ، وتأثرت بما ترجم من التراث اليونانى إلى اللغة العربية ، وأخذت عن الدين الإسلامى ، وعرفت تعاليم الدين المسـيحى وتعاليم الدين اليهودى . فنبت التفكير الفلسفى العربى من فلسفة وتصوف وعلم كلام وترعرع فى كنف ذلك المجمع الثقافى والمتحف الحضارى ، ونحن لا ندرى إلى الآن أى هذه الثقافات كان أقوى تأثيراً من غيره فى الفكر العربى ، وإلى أى حد كان أخذ العربى ومحاكاته لثقافات غيره من الشعوب ، ولا نعرف ما هو نصيبه الحق فى تراثه الحضارى ...

لكى نكشف عن حقيقة هذه المسائل الموبصة ، يجب أن نسترشد بكل ما يقال إنه من العوامل التى أثرت فى كل من الفلسفة والتصوف وعلم الكلام إذ قد تدلنا على قسط كل ثقافة فى الحضارة العربية ، وتحدد لنا نصيب الفكر العربى فيها .

أولا : يلاحظ على الفلسفة العربية أن هناك من لم يقتنع بوجودها ، ويشك فى قدرة العقلية العربية على التفلسف ، ويرى أن الفلسفة العربية ما هى إلا خليط مشوه من الأفكار اليونانية لا نصيب فيها للفكر العربى ؟ وأن هناك من يدعى بأن للعرب إضافات مبتكرة تشهد بأن الفكر السامى فى قدرته أن يضع نظريات ويقيم كليات ، وأن هناك من يقول بأن هذه الإضافات ليست مبتكرة وإنما هى مأخوذة من الأفكار الهندية والفارسية ولكى نتوصل إلى الرأى الصواب ؛ يجب قبل أن نشتغل بهذه الفلسفة ، أن نجيد فهم الفلسفة اليونانية ، ونتتبع تاريخ تطورها من يوم ظهورها إلى أن ترجمت إلى اللغة العربية ، وأن نعرف مراحل تطور الفكر الفارسى من قبل نهضة زرادشت إلى أن استولى العرب على بلاد فارس ، وأن نلم بكل الديانات الهندية من هندوسية وبوذية سواء فى أصولها أو فى صورها التى وصلت إلى العرب . وبعد أن نحيط علماً بكل ذلك يمكننا أن نبحث فى الفلسفة العربية ، وأن نحدد موقف العقلية العربية منها .

ثانياً : أما عن التصوف فتضاربت الأقوال شتى المذاهب فى نشأته وتطوره ، فمن يرى أنه هروب من ارتباك الحياة السياسية وانحطاط الحياة الاجتماعية ، ورجوع الحياة الصوفية القديمة التى كانت فى الهند وفارس ، ومن يرى أنه محاكاة للرهبنة المسيحية ، وأنه استمد تفسيراته للأحوال الصوفية من أفكار الأفلاطونية المحدثة ، ومن يرى أن دين الإسلام برىء منه ، لأنه دين جاف لا يلين للعواطف الصوفية ، بينما يستند الصوفية دائما في أقوالهم إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . فكل هذه الآراء تجبرنا وتلزمنا بأن نلم بالأصول الثقافية التى دعت إلى ظهور التصوف وساعدت على نموه ؛ وأن نعرف قبل أن نقبل على دراسته تاريخ الإسلام السياسى وأثره فى الحياة الصوفية ، وتعاليم الدين المسيحى ونظم رهبنته ومدى نفوذه فى العالم العربى ، ونظريات الأفلاطونية المحدثة ، ودين الإسلام وروح تعاليمه فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، وتاريخ التصوف الهندى والفارسى .

ثالثاً : إن كان هناك من يؤكد بأن نشأة علم الكلام دعت إليها الحياة العربية ، وحاجتها للدفاع عن تعاليم الإسلام ، ومقاومة كل الحركات التى ناهضت الإسلام ، وعملت على تقويض نفوذه وهدم تعاليمه ؛ إلا أن هناك أيضاً من يعتقد أن علم الكلام كان مجرد محاكاة للجدل اللاهوتى المسيحى ، وأن حججه وبراهينه كلها مأخوذة من الفلسفة اليونانية . ولكى نمتحن هذه المزاعم يتطلب منا أن نحيط علماً بمختلف التيارات الثقافية التى ناهضت الإسلام وتعاليمه ، وبنوع الجدل اللاهوتى الذى كان يدور بين المسيحيين ومدى شيوعه فى المملكة العربية ، وبالفلسفة اليونانية وطرق إقامتها للحجج وأسلوب جدلها المنطق وروح براهينها .

نستنتج مما تقدم أن الباحث فى الفكر العربى لن يصل إلى شىء ذا خطر علمى ، ما لم يمون نفسه بالزاد الثقافى الذى يحتاج إليه ، حتى يكون دقيقاً عميقاً فى أبحاثه ، صادقاً مصيباً فى أحكامه ولكى نسهل عمل كل من يرغب فى أن يشتغل بهذا الفكر ، نخطط له برنامجاً ثقافياً ، عليه أن يستوعبه قبل أن يبدأ فى تناول أى بحث فلسفى عربى أياً كان نوعه ، ويتلخص هذا البرنامج الثقافى فى الخطوات الآتية : —

١ — أن يبدأ الباحث بدراسة تاريخ الفكر الفارسى ، وتاريخ الفكر الهندى فى أصولها ، ثم على حالتيهما اللتين وصلتا للعرب .

٢ — ثم يدرس الفلسفة اليونانية دراسة تفصيلية فى مختلف أطوارها ، منذ نشأتها إلى يوم أن نقلت إلى اللغة العربية .

٣ — ثم يدرس تعاليم الديانات السماوية الثلاث ، وهى الإسلام والمسيحية واليهودية ، ويدرسها أولا فى أصولها ، ثم على حالتها التى كانت عليها فى العصور العربية .

٤ — أن يتتبع تاريخ الإسلام السياسى ، ومدى أثره فى الحياة الثقافية .

وبعد أن يعطى الباحث هذه العلوم حقها من الدراية والفهم ، يسمح لنفسه بأن يتناول الفكر العربى بالبحث ، لأنه فى ضوء ثقافته هذه ، يمكنه أن يتتبع نشأة كل أنواع هذا الفكر ، ويتلمس أماكن ظهورها فى مختلف البلاد العربية ، ويدرك أدوار تطورها ، بل يمكنه أن يعين العوامل التى أدت إلى وقيها أو التى عاقت تقدمها ، وأن يوضح مكانة العقلية العربية ومدى تفاعلها مع الثقافات الأخرى . وكل ذلك يساعده مساعدة فعالة فى شرح تفاصيل الفلسفات العربية شرحا وافياً دقيقاً غير متأثر فى أحكامه بأى عاطفة سوى حب الحقيقة ، كما يساعده فى تحديد عناصر الحضارة العربية ومقومات روحها الحق .

عبد العزيز محمد الزكى
ليسانسيه فى الفلسفة

اطلب نسختك من كتاب

دفاع عن البلاغة

قبل أن ينفد

من دار الرسالة ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد